كلية العلوم الاجتماعية
قسم علم النفس

محاضرات
في علم النفس الاجرام

أ.د.سايل حدة وحيدة
o.sail@univ-alger2.dz
جامعة الجزائر2

النظريات المفسّرة للسلوك الاجرامي

علم الإجرام La criminologie، دعنا نذكر، لا يدعو إلى أن يصبح علمًا مستقلاً، لأن هناك "طابعًا لا يمكن التوفيق بين النماذج المختلفة والتخصصات الفرعية المختلفة التي تم جمعها خلف راية علم الجريمة (Mucchielli, 2014) ما هو، كما اشار اليه Carrier و Chantraine(2009) ثم Mucchielli(2014) الا "مجال دراسة" مخصص، عند مفترق طرق علم الاجتماع ، القانون ، والطب الشرعي، والطب النفسي، وعلم النفس، والتاريخ، وما إلى ذلك، لتحليل نفس الموضوع لحدود متبقية غير دقيقة.

علم النفس ثري بالتناولات النظرية المفسّرة لمختلف الظواهر النفسية والسلوكيات، وحضي السلوك الاجرامي بالتفسير والتحليل والقياس وفقا للخلفيات النظرية التي اعتمدها الباحثين.

ننطلق في عرض اقدم واعرق نظرية في علم النفس الا وهي التحليل النفسي، ثم نعرج على النماذج التي يستعان بها حاليا للبحث في حقل الاجرام، منها التناول النمائي المركّز حول المجرم الذي امتد ليشمل تطور الفرد بشكل عام انطلاقا من الولادة فالمراهقة إلى سن الرشد. كما نعرض النظرية السلوكية المعرفية.

وبعد حدوث تطورات في العلوم البيو- طبية وبشكل خاص في العلوم العصبية والوراثية، ظهرت طرق أخرى جديدة تفسّر السلوك الإجرامي في إطار النموذج البيو – طبي- اجتماعي وهي تبين ضرورة الاستعانة بهذه الاتجاهات لفهم والوقاية والتكفل بالمنحرفين.

1.نظرية التحليل النفسي

في عام 1906، كان Freud حريصًا جدًا على صحة هذه العملية، ثم اثارها Ferenczi بصراحة (1928) منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين، تطورت الروابط بين التحليل النفسي وعلم الجريمة كما يتضح من الزيادة في عدد المنشورات التي تبرز اهتمام التحليل النفسي في هذا المجال من بينها ، في عام 1925 ، نشر Abraham " قصة فارس الصناعة في ضوء التحليل النفسي"

في هذه المقالة، لا يقتصر على وضع تشخيص سيكاتري للحالة M. N، لكنه تناول أفعاله الإجرامية كأعراض في اقتصاده الذاتي، من خلال تحديد وظيفتها النفسية. بفضل هذا التناول النفسي القصير للمجرم، كان يُنظر إليه سابقًا بواسطة Ferenczi، ساهم Abraham بلا شك في تأسيس التحليل النفسي الاجرامي la criminologie psychanalytique.

لكننا نعلم المكانة الهي يعطيها Freud للجريمة، ولا سيما لقتل الاب خاصة في تنظيره للاجتماعية والذاتية. في أوائل عشرينيات من القرن العشرين، أدرج مؤسس التحليل النفسي في التنظير الثانيي ونظريته الجديدة عن النزوات، وما ابرزته الدراما التاريخية للحرب العالمية الأولى: وجود في كلّ منا نزوة الموت التي، في بعض الأحيان، تنشط بواسطة التدمير الذاتي المتأصل في كل حضارة. ثم في عام 1930، في مؤلفه Malaise dans la civilisation، يؤكد Freud " إن الإنسان ليس كائنًا لطيفًا، بحاجة إلى الحب وقادرًا على الدفاع عن نفسه عند تعرضه للهجوم، ولكنه يمتلك من بين عدد مواهبه الغريزية جزء كبير من العدوانية لذلك، فالآخر بالنسبة له لا يشكل مصدر مساعدة ممكنة وموضوع جنسي فحسب، ولكنه أيضًا مصدر إغراء لإرضاء عدوانيته منه، واستغلال قوته في العمل دون تعويض، ولاستخدامه جنسيًا دون موافقته، ويستولي على ممتلكاته، ويذله، ويسبب له المعاناة، تعذيبه وقتله " (Freud, 1930).

« L'être humain n'est pas un être doux, ayant besoin d'amour et capable tout au plus de se défendre quand on l'attaque, mais qu'il peut se targuer de compter au nombre de ses dons instinctifs une grosse part d'agressivité. Par conséquent, son prochain n'est pas seulement pour lui un aide éventuel et un objet sexuel, mais aussi une tentation de satisfaire sur lui son agressivité, d'exploiter sa force de travail sans dédommagement, d'user de lui sexuellement sans consentement, de prendre possession de ses biens, de l'humilier, de lui causer des souffrances, de le martyriser et de le tuer » (Freud, 1930, p.119).

وعليه وعلى حد حكمة J.-A._Miller (2008) "لا يوجد اكثر انسانية من الجريمة " فكرة ينبغي تذكرها عند التعامل مع الافراد المجرمين. خاصة وأن مجتمعنا الحالي و"تطوره النفعي لا يخلو من نقص معين في الكرامة الإنسانية للمجرم، ولا من دون المطالبة العلمية لاعتبار الجريمة والمجرم بموضوعية بإبعاده عن ذاتيته (Miller, 2008). على العكس من ذلك، يعتزم التحليل النفسي تحديد حالة ووظيفة وسببية الفعل في الاقتصاد النفسي لمرتكبه سواء كان، بموجب القانون، منحرفًا أو مجرما أو تقرر جنائيًا انه غير مسؤول عن جرمه. يتعلق الامر انطلاقا من اقوال الفرد تحديد المنطق الذاتي الكامن وراء الفعل من خلال تحديد دلائله التي تحمل معنى ونقاطه الحاسمة بهدف تحديد السببية الموضوعية للفعل الذاتي. ولكن، على عكس الدراسات الإجرامية التي تسعى إلى تحقيق شفافية المجرم وفعله، من خلال تحديد الملامح والدراسات الإحصائية والمعايير الاحصائية، يؤكد التحليل النفسي أن هناك "بعض شيء لا يمكن احصاءه في القرار الشخصي للمنحرف والمجرم " (Miller, 2008) .يقوم العيادي أيضًا بتحليل التداعيات النفسية للفعل على مرتكبيه، حيث أن هذه النتائج لها عواقب فقط على استدعاء الموضوع لمتعته الخاصة .

في إطار التحليل النفسي، يفترض ان تتكون الشخصية من ثلاث مكونات او موقعيات: الهو والانا والانا الاعلى. في قاعدة النفس نجد الهو المسؤول عن اصدار النزوات الذاتية والبحث عن اللذة. اذا ظهرت هذه النزوات سوف تساهم في ظهور السلوك المضاد للمجتمع. توجه النزوات الصادرة من الهو والى الأنا الذي بدوره يوجهها نحو الواقع.

الانا هو بدوره موجه من قبل الانا الاعلى الذي يجسّد القواعد الأخلاقية التي يكتسبها الفرد أثناء التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة. إذا كان الأنا يتعارض مع القواعد الأخلاقية للأنا الأعلى، فإنه يعاقب بالذنب والحصر. نجد لدى الفرد المتوافق جيدًا، الأنا قادر على التصرف بطريقة ترضي متطلبات الإشباع للهو، ولكن بطريقة مقبولة أخلاقياً من الأنا الأعلى.

يحدث هذا في التنظيم النفسي "العادي" لكن ماذا يحدث في التنظيم النفسي للمجرم؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

كان Freudحذرا جدا في تفسير الاجرام كما تعود عليه في تفسير ظواهر خارج الجلسة التحليلية، بالنسبة له الاجرام مقترن بشعور بالذنب، وهو موجود قبل ارتكاب الخطأ، وأن الفعل المرتكب يعمل فقط على إراحة المريض، اي هو رد فعل "تجاه النوايا الإجرامية الرئيسية، وهي قتل الأب وممارسة الجنس مع الأم ." لذلك تنشأ الجريمة وفقا له مع دراما الأوديب".

تعمق محللاين نفسانيان في هذه الفكرة انطلاقا من حقل التجسيد، الاول Reikالذي ركز على فكرة الخطأ الذي تصرّح به الجريمة. والثاني Friedlander الذي اعتبر الاجرام كعرض لصراع داخلي، وبالنسبة للاثنين تصبح الجريمة خيال مسقط لمشهد آخر، مسرح لنزاع سابقا له بالضرورة؛ بالنسبة لهما، سيلعب الفعل ما لم يعد بإمكان الهوام أن يحسبه.

في أدب التحليل النفسي، تم التذرع بهذه الحقيقة بشكل أساسي لشرح خصائص الفرد السيكوباتي. الاحتمال الثالث، يتعلق بانحراف الأنا الاعلى، يتجلى في حالة يكون فيها الطفل الصغير على علاقة جيدة مع أب مجرم.

وبالتالي، فإن المجرم سيحقق دراما مدفونة بشكل سيء، وسيكرر في النظام الاجتماعي الذي يضربه، المأساة الأولى والدموية القديمة للدم والتفريق. وإذا كان الأنا الاعلى شديد وعقابي للغاية، فقد يميل الفرد إلى الانخراط في سلوك إجرامي (مثل السرقة القسرية) من أجل معاقبته على ذلك هنا، ترتبط الرغبة في المعاقبة بذنب الرغبات الطفولية اللاشعورية. على العكس من ذلك، فإن الفرد ذو أنا أعلى ضعيف سيشعر بالذنب وحصر اقل تجاه الأفعال المعادية للمجتمع المخطط لها، وبما أن هذا القلق والذنب هو الذي يبقي معظم الافراد "على خط مستقيم وضيق"، يكون لدى هذا الفرد القليل من الكف للعمل على الدوافع الأنانية والعدوانية للهو بمعنى يسمح بتحقيقها.

من خلال تجسيد قيم والده أثناء النمو المعتاد، يقوم بتجسيد سمات والده الإجرامية (Blackburn, 1993) لذلك ، بالتالي وبكل بساطة لا يستجيب الانا الاعلى سلبًا للجرائم المخطط لها.

ومن رواد التحليل النفسي العاملين في مجال الانحراف نجد Aichhorn الذي تكفل باطفال غير متوافقين اجتماعيا، وبالنسبة له اضطراب في التكيف الاجتماعي هو نتاج صراعات داخلية حول مواضيع معينة. ويظهر على شكل غير نمطي. اذا كانت قوة الانا تكتسب تدريجيا عبر الزمن، وبمواجهات مختلفة مع الواقع، فكل نزوة غير متحكم فيها (كما هو الحال لدى المجرمين والمنحرفين من المراهقين) او لم تخضع للرقابة تعتبر كعامل فقدان التكيف الاجتماعي، وهي دليل على توقف النمو والنضج. وبالنسبة له تكون هذه النزوات غير متحكم فيها بسبب غياب او خلل في موقعية من موقعيات الجهاز النفسي، وهي الموقعية الناهية، التي تآمر وتكف وتقمع، تعارض او تقبل وتشجع، هي ذلك الجزء من الانا "الانا المنتقد" او "الوعي"، ما هو الا **الأنا الأعلى** (المثل الاعلى للانا) الذي يبدو انه فيه خلل او هو منعدم، نعلم انه يتشكل انطلاقا من التعامل المناسب لاول مواضيع الحب الوالدين مع الطفل.

وفكرة وجود ثغرة في المكون **الانا الاعلى** تم تأييدها من قبل Alexander et Staub وتم نقدها من قبل محللين آخرين. وانطلاقا من ترجمة في عبارات النزوات المحررة، الأفعال العفوية والوحشية التي تظهر في السلوك اللااجتماعي، وفي عبارات تقلص موقعية في الجهاز النفسي او غيابها هو مصدر هذا السلوك. وبهذا قام Aichhorn بتحديد الخلل او غياب موقعية في الجهاز النفسي كسبب في غياب الاجتماعية، وهذا منافي لفلسفة النظرية التحليلية التي تستبعد التركيز على مواقع تشريحية.

في نفس الاتجاه اشارت Marie Bonaparteان السلوك الاجرامي هو نتيجة انا اعلى بدائي او نكوصي يعمل تحت سيطرة الهو. بالتالي فالانا الاعلى يظهر كعبد لعنف **الهو** وعلى سابقة بدائية تسمح بعودة عنف الأجداد في الفرد، في الوقت نفسه، يتم الخلط بطريقة ما مع الذهان والتدمير، من الضروري أيضًا أن يفقد الموضوع كل اتصال بالواقع. هذا يعني أنه في محاولة تحديد موقعية الاجرام في أصلها، يمكن للمحلل النفسي اعتبار الإجرام انطلاقا من فكرة البدائية أو اللاتمايز archaïsme ou une Indifférenciation.

لكن Mélanie Kleinهي التي ستدرك هذه الفرضية بوضوح: "إنها تكتب، القسوة المفرطة والقساوة الساحقة للانا الاعلى، وليس ضعفه أو غيابه كما يفترض عادة، هي المسؤولة عن سلوك اللااجتماعي والإجرامي لدى الأفراد. لذلك، بالنسبة لها الكراهية تجاه مثل هذا الانا الاعلى هي التي ستحرض الفرد على تدمير كل موضوع الذي قد يأخذ مكان هذا الانا الاعلى والذي سوف يأخذ ميزات عدو خارجي.
لأنه بالنسبة لـ Mélanie Klein إذا لم يكن هناك تجسيد كافٍ للمواضيع الجيدة والحقيقية التي تأتي لتهدئة هذه المخاوف، وإذا لم تتطور الميول للتصليح تجاه الموضوع بشكل كاف، يحدث خلط دراماتيكي بين "المواضيع التي يجب تدميرها" والأشخاص الحقيقيين. بالتالي فالمجرم يقع ضحية انا اعلى مثل هذا، لا يجد طريق هوامي وتصعيدي la voie sublimatoire et fantasmatiqueيسمح له بتحمل هذه القساوة. يصبح الانا يعمل بقساوة بدائية تزيد من الذنب والقلق بالتالي تكرار مثل هذه التجربة بعيدا او بتجنب الوضعية الاوديبية.

كما تم تطوير واحدة من أفضل نظريات الانحراف المستمدة من التحليل النفسي بواسطة نظرية لـ John Bowlby المتعلقة بالحرمان الأمومي، على الرغم من أنها نشأت في التحليل النفسي، فهي تحتوي أيضًا على عناصر من علم الأخلاق ونظرية التطور. بشكل أساسي، اقترح Bowlby أن الطفل يحتاج إلى علاقة وثيقة ومستمرة مع مقدم الرعاية الأساسي (الام بشكل عام) حتى سن 5 سنوات تقريبًا. فإذا كان هذا التعلق مضطرب، فقد تكون إحدى النتائج هي عدم قدرة الطفل على تكوين علاقة ذات معنى مع افراد آخرين. نجد لدى بعض الأفراد سمة "بدون عاطفة" قد تؤدي الى السلوك المنحرف. استندت نظرية Bowlby إلى أدلة مستمدة من دراسة الأحداث الجانحين المحالين إلى عيادة توجيه للأطفال. وقام بمقارنة 44 شابًا من اللصوص بمجموعة غير المنحرفة. وجد أن 39 ٪ من المجموعة المنحرفة قد عانوا من اضطراب كبير في التعلق مع الأمهات قبل سن الخامسة مقارنة بـ 5 ٪ فقط من المجموعة غير المنحرفة .

تعرض عمل Bowlbyالى النقد لكونه لم يتبع منهجية متحكم فيها كما ان العينة غير ممثلة للمجتمع، وعليه لا يمكن تعميم هذه الفكرة على كل المنحرفين والمجرمين.

في نفس الاتجاه حاول Winnicott عرض فكرة حول السلوك المضاد للمجتمع، فهو لم يتناول بالدراسة الافراد لهم هذا السلوك لكن كانت له تجربة كطبيب اطفال يعمل مع المصالح الاجتماعية حول انماط غير المتكيفة، وتحدث في هذا السياق **عن الشخصية البينية** p.borderline. وهو لا يخلط بين الانحراف والميل المعادي للمجتمع، لكنه يصّر.على كل شيء ينشأ عن فقدان شيء ما كان جيدًا، يمكننا بالفعل أن نعتقد أنه بفضل السلوك اللااجتماعي، سيحاول الافراد أنفسهم، من خلال التلاعب بالبيئة لمعالجة أنفسهم من أولئك الذين فطموهم. وهكذا يمكن أن تصبح السرقة والكذب تعبيرًا عن الأمل والطلب التعويضي من البيئة: بطريقة ما يحاول معرفة، "هل ستكون قادرًة على تحملي هذه المرة (أي "حملي") ، دون اسقاطي او التخلي عني مرة أخرى؟ "نحن نؤكد هنا على القيمة غير التشخيصية لهذا الاتجاه، وحقيقة أنه لا يمكن أن يتعلق الامر بمسألة الجنوح، حتى لو كانت فكرة الحدث هذه والتعويض تنظم إلى الفكرة التي وضعها Winnicott في بعض الفرضيات الإجرامية.

هناك ميل لرفض النظريات المستمدة من التحليل النفسي لأنها ليست علمية لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، أظهر Blackburn (1993) أن نظريات التحليل النفسي تتميز بعدد من الفرضيات: أولاً تعتمد التنشئة الاجتماعية على تجربة الطفولة. ثانيًا، ترتبط التفاعلات الضعيفة بين الوالدين والطفل بالاتجاهات المنحرفة في المستقبل. تشير الفرضية الثالثة إلى أن النزعات الإجرامية هي مظاهر صراعات لاشعورية، وهي مهمة جدًا للتحليل النفسي ولكن للأسف الأكثر صعوبة في جمع الأدلة المباشرة. ومع ذلك، وجد Hollin(1989) أن الباحثين في هذا السياق حددوا عددًا كبيرًا من المتغيرات المتعلقة بالسلوك المنحرف في مرحلة المراهقة. لذا فإن التحليل النفسي هو نقطة انطلاق لنظريات معروفة بعد ذلك والمفسّرة للسلوك الاجرامي على سبيل المثال ، يمكن تفسير العلاقة بين متغيرات الأسرة والجريمة بطرق مختلفة (على سبيل المثال من خلال نظرية التعلم الاجتماعي) وأنه من النادر نسبيًا في الوقت الحالي أن يعتمد الباحثون فقط على نظريات التحليل النفسي لتفسير السلوك الإجرامي.

هكذا طور التحليل النفسي افتراضات تتعلق بالسلوك الاجرامي، انطلاقا من تعلق غير الآمن للطفل خلال النمو، وتشكيل الحالات البينية التي يصعب عليها التخلي عن الموضوع، تحاول التلاعب بالبيئة لجلب اهتمامها عن طريق السلوك الاجرامي لتكرار امكانية تحملها وحملها شيئ لم تعايشه في الطفولة. ايضا افتراض يتعلق بضعف الانا الأعلى والانا اللذان يعملان تحت سيطرة الهو الذي يسعى لتحقيق النزوات دون اعتبار الاخلاق والمحرمات. او انعدام موقعية الانا الاعلى. بينما يشير افتراض آخر الى القساوة الكبيرة لموقعية الانا الاعلى، تجعل الكراهية تجاه مثل هذا الانا الاعلى هي التي ستحرض الفرد على تدمير كل موضوع الذي قد يأخذ مكان هذا الانا الاعلى والذي هو ذاته سوف يأخذ ميزات عدو خارجي.

يظهر من خلال كل هذه الافتراضات التحليلية صعوبة التأكد منها في الواقع من خلال دراسة الأفراد المنحرفين، ولا يبين المحللون كيفية قياس هذه الميول والسلوكيات الاجرامية، فهم ينتقدون الطرق الاحصائية المعمول بها حاليا لتحديد العنف الاجرامي والعود الاجرامي، وهي طرق معممة على المنحرفين، لكن لا يعرضون البديل لهذا لانجد حاليا استعمال التحليل النفسي في تشخيص واعادة ادماج المساجين.